قراءة في اسهامات الكاتب السوري الراحل تركي الربيعو:

كيف تحوّلت عملية قتل التراث الى حفل دموي لقتل البشر؟

حسام الدين محمد*

■ نعت العديد من وسائل الاعلام والصحافة وفاة تركي علي الربيعو، أحد البحاثة العرب المتميزين، مؤخرا، عن 55 عاما، وعدد من الكتب المهمة، ومئات الأبحاث والمقالات المنشورة في أغلب الدوريات والمجلات والصحف العربية.

بعض وسائل الاعلام والمنشورات لم يجد تعريفا يختصر الرجل غير «البدوي المثقف»، وهو تعريف كان سيضحك الباحث الراحل، او ربما سيبعث القلق في نفسه، لأنه خصّص جلّ عمره القصير لنفي هذه المقولات المبسّطة وفي اغلب اعماله الفكرية والسياسية خاض حربا ضد القراءات الايديولوجية والاستشراقية (التي تختزل الاسلام مثلا في البداوة، وتختصر البداوة في الخيمة) للواقع العربي لكن يبدو ان اعماله لم تعصمه هو نفسه من هذه القراءة الاستشراقية!

* * *

البحث الأول الذي قرأته للربيعو كان في بداية التسعينات من القرن الماضي وكان بعنوان «الدين في منظور الخطاب الماركسي العربي» وقد أثار خضّة عميقة بداخلي لأنه كان ـ بالنسبة لي ـ اول نقد للخطاب الماركسي العربي لا يجيء من ضفّة التهويش والاختلاف الايديولوجي القائم على المفاضلات والمقارنات الحماسية (كما كانت كثير من النقود القومية او الاسلامية) بل كان قراءة عميقة له على ضوء العلوم الحديثة (الانثروبولوجيا والابستمولوجيا)، عميقة لدرجة كشفت لي امكانية جديدة لفهم ما استشكل على اجيال من الماركسيين والحداثيين العرب وجعلهم على قطبي نقيض من مجتمعاتهم.

جوهر هذه القراءة اعتمد على استقراء جديد للنصوص المقدّسة يختلف جذريا عما كان سائدا في القرنين التاسع عشر والعشرين. امساك الربيعو لهذا الخيط كان رائدا بحقّ، اما قدرته على استيعاب اغلب ما ينشر في الثقافة العربية واعادة قراءته فكانت شديدة الفائدة، وان حصدت للربيعو عددا كبيرا من المتابعين... والاعداء.

لم يكتف الربيعو بالمتابعة البحثية والنقدية لكل ما يستجد في عالم النشر والفكر فقد دخل عالم التأليف مستكشفا آفاقا جديدة في الفكر والتاريخ والسياسة فكان اول كتبه «الاسلام وملحمة الخلق والأسطورة 1992» ليتبعه «العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الاسلامية 1994»، ثم «من الحجر الى الطين 1997» وليكون له ـ كما يقول فاضل الربيعي ـ «الفضل في تأسيس اول مدرسة عربية في مجال الميثولوجيا، هذا العلم الجديد الذي لم يتسن له بعد ان يدخل في مناهج التعليم الجامعي او في مجالات البحث الاكاديمية والفكرية».

خلال مرحلة عمله هذه اشتغل الربيعو على تاريخ وتراث المشرق العربي (بلاد الشام والرافدين) محللا المقومات الاساسية للميثولوجيات التي سادت هذه المنطقة، من خلال تحليل التراث الأسطوري والديني والكتب المقدّسة و«النصوص الحافّة» (مثل التفاسير القرآنية والتاريخية: الطبري، ابن كثير، القرطبي الخ...).

لكنه خلال عمله البحثي هذا كان الربيعو لا يكفّ ابدا عن السجال النقدي الدائم مع ما يسميه احيانا بالعقل التعليلي والاستشراقي (في نسخته السائدة بين المثقفين العرب)، وأحد الامثلة التي أثارت اعجابي على ذلك هو بحثه المنشور في «العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الاسلامية»: «حور الجنان في الميثولوجيا الاسلامية»، حيث يستشهد بميشيل فوكو في نقده للجنسانية المسيحية «التي لا تمتلك فنا شبقيا» مقارنا بينها وبين الحضارات الكبرى ومنها الحضارة العربية الاسلامية، التي كانت تمتلك خطابا صريحا حول الجنس والذي صار كما يقول الربيعو «يثير حيرة المثقف العربي ولا مبالاته وخجله من نفسه امام الآخر».

هذا الاحراج ادى الى قيام المثقف الاستشراقي العربي الى اعتبار الجانب الابداعي والفني في التراث العربي الاسلامي ضربا من «سيكولوجيا مرضية ومنحرفة»، ومثال الربيعو على ذلك هو عزيز العظمة الذي اعتبر «اخبار الحور في الجنة بنات فكر وتصور مخيلة اغتصابية» الأمر الذي يراه الربيعو اضمارا للسؤال الاستشراقي وتربعا للثقافة الاغريقية/اللاتينية/المسيحية في تلافيف دماغ المثقف العربي المعاصر والذي هو ناتج «ثقافة اوروبية عرقية ومتمركزة على الذات».

ويعزو الربيعو ذلك لغياب المثقف العربي المعاصر عن الانجازات الحديثة في مجال العلوم الانسانية وعن الجهد التنظيري الكبير في هذا المجال، مستنتجا في نهاية بحثه هذا ان صور الكواعب الاتراب في القرآن تنتمي الى الفن، وبانها شاهد على مخيلة فنية غنية بالافكار الخالدة ولكن المكبوتة، اي «ميثولوجيا جديرة بالبحث عن قوانينها وقيمها الخاصة لا ان نلقيها في سلة المهملات تحت وطأة تهديد عصا حارس الثقافة الاخرى».

اشتبكت مناقشات الربيعو مع نصوص اغلب المثقفين العرب بدءا من عبدالله العروي مرورا بصادق جلال العظم، هشام جعيط، ياسين الحافظ، مصطفى حجازي، محمد عابد الجابري، جورج طرابيشي، حسن حنفي الخ...

بحث «الصوفي يهزم الفيلسوف؟»، يمكن ان يقدّم تلخيصا عن اشتغالات الربيعو الفكرية حيث جمع فيه بين عدّته العلمية المتخصصة بالميثولوجيا وبين انتقاده لتجليات الخطاب العربي المعاصر كما ظهر في مشروع محمد عابد الجابري.

تركي علي الربيعو

في قراءته تلك توصل الربيعو الى ان الجابري يرى ان خلاصنا كامن في نفي اللامعقول في ثقافتنا نفيا نهائيا. محاججة الربيعو للجابري بالمقابل تقوم على ان المطلوب هو عقل اللامعقول وفهمه وليس اقصاءه ولأجل ذلك قام الكاتب الراحل بمناقشة مفاهيم السحر والاسطورة.

اوضح الربيعو ان الاسطورة هي تاريخ مقدس مهمته الربط بين الانسان والمقدس مما يطرح سؤالا مهما: ما هو موقع المقدس والدنيوي في تاريخ البشرية، وهل «يجوز الاحتكام الى التجربة الاوروبية وحدها في علاقتها بالمقدس وسعيها، في آن واحد، الى محاصرة الاله وموته، كما اعلن نيتشه، ومن بعد السعي الى محاصرة المقدس وتجلياته قاطبة؟»، ناسبا منهجية الجابري الى أنوية (من الأنا) حضارية تتحكم في الخطاب العقلاني الحديث فارضة رؤيتها السلفية الى تعود لعقلانية القرن 19 لا الى عقلانية الثث الاخير من القرن العشرين.

اعتمادا على عدد مهم من الباحثين مثل ليفي شتراوس ومرسيا الياد يوضح الربيعو ان الاسطورة لم تمت ولكنها تتخفى فـ«أساطير الانسان الحديث هي ميثولوجيات مموهة في المشاهد التي يحبها والكتب التي يقرأها، فالسينما تتناول ما لا حصر له من الموضوعات الميثولوجية: الصراع بين البطل والهولة، القتال والتجارب الاستسرارية، الاشخاص والصور النموذجية». التفكير الاسطوري ملازم للعقل البشري. وبالتالي فان التفكير الاسطوري ليس سمة تسم الانسان البدائي وليس حكرا على مجتمع دون آخر «كما حاول الجابري ان يظهر لنا في قراءته المؤدلجة للموروث، المنحازة تماما للمشروع الثقافي الغربي». كل كائن بشري، يلخص الربيعو مستندا الى مرسيا اليـاد، «مكوّن في الوقت نفسه، من فاعليته الواعية واختباراته غير العقلانية».

* * *

اعتبر البعض كتب الربيعو السياسية مثل «ازمة الخطاب التقدمي العربي 1995»، «خيارات المثقف 1998»، و«نقد الخطاب النهضوي المعاصر، 2000»، و«المحاكمة والارهاب، عقلية التخوين في الخطاب العربي المعاصر، 2001»، مرحلة مختلفة عن المرحلة التي اشتغلت على اساطير المنطقة وميثولوجياتها، ولكنني أرى ان ذلك خطأ يعبرّ عن عدم استيعاب السياق الفكري العام للكاتب الراحل، فأعمال الربيعو السياسية والفكرية ليست الا وجها آخر من وجوه العمل على الميثولوجيا وتجلّياتها في الخطاب العربي والاسلامي المعاصر، بل ان آخر كتبه (بالاشتراك مع فاضل الربيعي) الذي لم يصدر بعد يحمل العنوان البليغ التالي: «الميثولوجيا والسياسة في الوطن العربي».

وهو أمر ينبّهنا الى مسألة فكرية معقّدة استغرقت من تركي الربيعو رحلة ربع قرن من الجهد البحثي والمعرفي. هذه القضية تبدو على شكل ثنائيات متناقضة ومتنافرة: الأسطورة والواقع، الايديولوجيا والوعي، المقدّس والمدنس، الأخروي والدنيوي، وعلى المستوى السياسي العربي: العلماني والاسلامي، البعث والاخوان، فتح وحماس الخ...

بين هذين الطرفين المتباعدين تفغر هوّة هائلة من التناقضات اللامعقولة التي لم يستطع الواقع الفكري والسياسي العربي ان يلأمها ويصالح بينها.

السبب يعود بحسب الربيعو الى محاولة كل طرف لنفي الطرف الآخر، محاولة عبثية تحوّلت الى حفل دموي ليس له آخر نشهد فصوله في العراق وفلسطين والصومال ولبنان ومصر والجزائر والمغرب الخ...

اقصاء اللامعقول عن ثقافتنا (والثقافة الانسانية عموما) هو امر لا معقول وغير ممكن واقعيا، بل هو في اعتقادي سبب من اسباب تفجرّ واتساع مدى تأثير هذا اللامعقول.

او لنقل ان كل محاولة لدفن الصوفي ستؤدي لدفن الفيلسوف، وكل محاولة لقتل محمّد ستقضي على أي أمل لماركس، وبالنتيجة كل محاولة لقتل الله ستؤدي لقتل الانسان نفسه.

وهو ما يذكّرني بمقولة ذكرها رسول حمزاتوف في كتابه «داغستان بلدي» حيث قال: اذا اطلقت الرصاص على الماضي فسيطلق المستقبل مدافعه عليك!

هذا الدرس البحثي الهائل الذي خاض الربيعو غماره (وتوفّي باكرا قبل ان ينهيه) لا اعتقد انه ترك أثره الفاعل على ثقافتنا.

... أم لعله ترك؟

---

* ناقد من أسرة «القدس العربي»

husam@alquds.co.uk

1ـ في بحث له أشار الى الطبيعة الايديولوجية الزائفة لفكرة ربط مثالب مجتمع ما بكونه قبليا وعشائريا دون قراءة حقيقية للنظم القبلية والمنطق الذي يسودها، ومن جهة أخرى فقد اشتغل على كشف ان اغلب التعبيرات السياسية العربية من احزاب وتيّارات لم تجتمع وتنقسم الا على هذه الاساسات القبلية والعشائرية وغيرها من التقسيمات بما يدلّ على تجذّر هذه البنى من جهة وركاكة ادعاءات الحداثة الايديولوجية للاحزاب، وفي نقد للبنى الحديثة مقارنة بالبنى القديمة اشار الربيعو في بحث نشر له مؤخرا الى ان العلاقات العشائرية العربية ـ الكردية كانت جيدة على عكس العلاقات بين النخب العربية والكردية لاحقا.... ولا اريد هنا أن اصوغ حكم قيمة بأن الكاتب كان منافحا عن النظم القبلية ضد النظم المدنية، لكنني اردت الاشارة الى عمله ضد التفكير المبسّط والتنميطي.

«الخروج إلى الذات» لهيا صالح:

مقالات نقدية تضيء بعض ملامح القصة الأردنية المعاصرة

عمان ـ «القدس العربي» ـ من يحيى القيسي:

بالتعاون ما بين أمانة عمان الكبرى ودار نارة للنشر والتوزيع في عمان صدر كتاب الناقدة الأردنية الشابة هيا صالح «الخروج إلى الذات: مقالات في القصة الأردنية المعاصرة» وفيه تناولت تجارب عدد من القصاصين الأردنيين في مجموعات محددة وهم: عدي مدانات «شوارع الروح»، خليل السواحري «مطر آخر الليل»، يوسف ضمرة «أشجار دائمة العري»، هند أبو الشعر «الوشم»، د.سليمان الأزرعي «فلانتاين»، محمود الرياوي «لقاء لم يتم»، جمال أبو حمدان «موت الرجل الميت»، عزمي خميس «جلبة في الممر»، نايف النوايسة «رحيل الطيار»، بسمة النسور «النجوم لا تسرد الحكايات»، ياسر قبيلات «أشجار شعثاء باسقة»، جميلة عمايرة «الدرجات»، أحمد النعيمي «يد في الفراغ»، حزامة حبايب «شكل للغياب»، مفلح العدوان «موت لا أعرف شعائره»، جواهر الرفايعة «على قيد الطفولة»، خليل قنديل «عين تموز»، سامية عطعوط «سروال الفتنة»، محمد طحيمر «أواكس»، أميمة الناصر «الغناء بعيدا»، يحيى القيسي «رغبات مشروخة»، حنان شرايخة «بيتي في علبته الصفراء»، محمد جميل خضر «طقوس الرخام»، سميرة ديوان «فراشة النار».

وقد تم الاحتفاء بهذه التجربة الجديدة في محترف الرمال حيث قدم الناقد د. شكري عزيز ماضي قراءة في هذا الكتاب، كما أشارت الناشرة والروائية سميحة خريس إلى جهود صالح وتحمسها لها بالقول «كنت دائماً وما زلت متحمسة لتجربة هيا صالح، ليس لكونها أنثى تكتب النقد، ولكن لجديّتها في مشروعها، وخَطْوها فيه بأناة. مع الإشارة إلى أن اللواتي يكتبن النقد لا يواصلن التجربة وينسحبن مبكراً، وإلى أنهن ربما لا يتجاوزن في الأردن أصابع اليد الواحدة، تحاول هيا صالح أن تتعامل مع النصوص التي تدرسها بمنهجية خاصة، بمعنى أنه ليس من مسطرة لتمشي عليها كما يفعل بعض النقاد، وهي تحاول التقاط زوايا لا يلحظها القارئ وتنيرها».

وترى صالح في مقدمتها لكتابها الجديد أن المشهد الثقافي اعتاد على جملة من الاعتراضات البديهية حول النصّ النقدي، تتمحور في ثلاثة اتجاهات: الاعتماد على المقالة «الصحافية»، والميل إلى التطبيقي مع الإغراق بالانطباعية، وغياب التناول النظري الشامل للأدب بوصفه ظاهرة أو مجموعة من الظواهر المترابطة.

وتضيف أنه من هذه وتلك، جرى التأكيد على اعتراض رابع يسوق حججاً وجيهة تتوقف عند بنية الكتاب النقدي العربي، الذي يأتي في غالب الأحيان «تجميعاً» لمقالات متفرقة، أو «تلفيقاً» من خلال تحرير هذه المقالات ومحاولة إعادة توضيبها في هيئة نصّ واحد، ربما يغيب عنه التماسك، ويفتقر اجتماعُ موضوعاته إلى المبررات والسوغات الكافية، ويعوزها الانسجامُ والترابط.

وتشير صالح، بعد الإقرار بوجاهة هذه الاعتراضات، إلى جملة من الحقائق الموضوعية، التي من شأنها أن تنزّع عن هذه الاعتراضات صفةَ التعسّف والإطلاقية التعميمية، التي قد تُفقدها الدقةَ والحصافة. وفي مقدمة هذه الحقائق؛ ثمة الموقع المتميز الذي تحتلّه القصة القصيرة في المشهد الأدبي العربي، فهي قد تمثل المنجزَ الأهمّ في هذا المشهد. وعليه، فقد تكون النوعَ السردي الأكثر تعبيراً وملاءمةً للواقع الاجتماعي والثقافي، من جهة، والأكثر استجابةً لشروط الإنتاج الثقافي العربي وآلياته، من جهة أخرى.

والقصة القصيرة، بذلك، وبهذين العاملَين اللذَين يفسّران رواجَها، كما ترى صالح، قد تبرر ـ بدورها ـ رواجَ المقالة وضرورتها كنصّ نقدي، إذ من حيث يقترح النوعُ الأدبي (ودورُه الاجتماعي الثقافي)، الشكلَ النقدي الذي يستجيب له، فإن المقالة تبدو، بذلك، النصَّ الموازي والمناسب للقصة القصيرة، نقدياً. وانطلاقاً من أن الصحافةَ ما تزال البيتَ الأول والأساسَ للمنجز الأدبي والنقدي، على حدٍّ سواء، فإن المقالة تبرز ـ في هذا المقام ـ بوصفها النصَّ النقدي الأكثر فعالية في استجابته لهذا الواقع، ولا يجدي، بحسب هيا صالح، عدم الاعتراف بها أو التقليل من شأنها، بنعتها بـ«المقالة الصحافية»، ولكن هذا يوضح، بدوره، ويبرر إلى حدٍّ ما، ميلَ هذا النصّ إلى التطبيق، أكثر من ميله للجانب النظري.

وتتابع قائلة في مقدمتها: «إذا كان من الصعب الدفاع عن الإغراق بالانطباعية، فإن الميل إلى (التطبيقي) لا يبدو بعيداً عن السوغات الموضوعية، أو مفتقراً للضرورات والمبررات الثقافية المتعلّقة بالمشهد الثقافي نفسه، فيما يبدو غيابُ التناول النظري الشامل للأدب، هو الآخر، سمةً طبيعية من سمات هذا المشهد، تنسجم مع عمر الأدب العربي الحديث، ومع الحراك النقدي الذي يسير بالتوازي مع مشهد أدبي ما يزال قيد التشكّل في العديد من البلدان العربية، ناهيك عن أن أسئلة ثقافية رئيسية، حاسمة في هذا المجال، ما تزال خارج نطاق التبلور النهائي».

لهذا السبب، تم الحفاظ على الشكل الأصلي الذي كُتبت به المقالات التي يتضمّنها هذا الكتاب، خصوصاً وأنها كُتبت، أصلاً، في أوقات مختلفة، ومن زوايا نظر متباينة، ونُشرت في الصحافة الثقافية متفرقة، وهي تُخلص للمقالة، وتحمل سماتها شكلاً ومضموناً. فكما ترى صالح، كان من شأن العمل على إعادة إنتاج هذه المقالات في بنية موحدة أن تكون محاولة متعسّفة. فضلاً عن أن المقالة تبقى الوسيلة الأكثر شيوعاً ونجاعةً في متابعة المنجز الأدبي ورصده.. وهي «شكلٌ مشروع وفاعل، ولا يجدر التنصّل منه، في كل الأحوال، سواء أكان لغايات النشر في وسائل الإعلام الثقافي، أم في بطون الكتب».

وتبين صالح أن كتابها يجيء وفق هذه الصيغة ليواصل تقاليد الكتابة النقدية العربية باعتماد المقالة، وليحتكم إلى شروط الإنتاج الثقافي العربي وآلياته، مضيفة في مقدمتها للكتاب، أنه رغم ما يبدو من استقلالية العروض التي يقدمها الكتاب لعدد من التجارب القصصية في الأردن، بعضها عن بعض، فإن القارئ لن يعجز عن إدراك الظواهر المشتركة في التجارب المتناولة، والتي تؤشر بدورها على التقاسيم الرئيسية في وجه اللحظة المعاصرة من القصّ الأردني الحديث في السنوات الأخيرة.

وتلفت إلى أن أبرز ما يكشفه الكتاب، هو أن تلك الدائرة من الأحكام النقدية التي اقتصر إطلاقُها على المنجَز التسعيني، تتسع لتشملَ ـ إلى حدٍّ كبير ـ المشهدَ القصصي الأردني المعاصر عموماً، الذي يشترك بكون «العودة إلى الذات» ملمحُه العام، حيث أخذت التجارب الأخيرة لكتّاب أردنيين من أجيال سابقة هذا المنحى.

وتختتم صالح في هذا السياق بالقول إن هذه «العودة إلى الذات» وجدت تجسيدها بـ«الخروج إلى الذات» ـ عنوان الكتاب ـ لبضعة اعتبارات؛ فعدا التقابل في المعنى الذي تنطوي عليه المفردتان (حيث «العودة» نكوصٌ يقود إلى التقوقع والانغلاق على الذات.. بينما «الخروج» انفتاحٌ وتفاعل)، فإن اعتماد مفردة «الخروج» يؤشر على أن هذه العودة لا تتوقف عند الذات، ولا تتقوقع عليها، ولكن تعتمدها، وتغلب حساسيتها لدى النظر إلى الخارج. وهو ما يتطلبّ تقنيات سرديةً خاصة، ملمحُها الأساس هو الاسترجاعات الذهنية. وبدلَ العودة إلى الماضي، فإننا نواجه استحضارَ هذا الماضي بانتقائية الذات وحساسيتها، إضافة إلى الخلخلة في التتابع الزمني الطبيعي، والعناية الأقلّ بالمكان. كما يحضر، في سياق ذلك، الراوي كليّ العلم.

شكري الماضي: موقف نقدي يتصف بالحنو

من جهته أشار الناقد والأكاديمي د. شكري عزيز ماضي إلى أنه يشعر بالفخر والاعتزاز لأن كتاب هيا صالح بعنوانيه الرئيسي والفرعي ومحاوره الأربعة والعشرين يجسد تجربة نقدية لها ملامحها المتميزة وقسماتها المتفردة على صعيد المفاهيم والتصورات الأدبية والنقدية والخطوات الإجرائية وكيفية التناول. وتابع الماضي قراءته لكتاب صالح بالقول:

«يمكن الإشارة في هذا المجال إلى الملاحظات الآتية مجتمعة:

أولاً: النظرة الشمولية للنص المدروس، فالكاتبة تتعامل مع القصة أو المجموعة المدروسة من خلال نظرة كلية تراعي وحدتها وعلاقاتها وأبعادها، وتمتد هذه النظرة أحياناً ـ لتشمل تجربة القاص برمتها، وهذا ما فعلته مع قصص الأديب خليل السواحري. ثانياً: تنوع المداخل النقدية مع ثبات المنظور العام للأدب وماهيته ومهمته، وهو أمر أضفى على المنهجية المتبعة المرونةَ والحركة والخضوع الجزئي لمنطق النص ومنطوقه. فهي تدخل إلى النص من زاوية محددة تفرضها القيمة الفنية المهيمنة، فتراها تركز على نثريات الحياة اليومية وأثرها في نسيج النص ودورها (قصص عدي مدانات)، أو على السياقين الخاص والعام (قصص خليل السواحري)، أو تضافر نزعتي الايديولوجيا والتجريب (قصص سليمان الأزرعي)، أو تحول مفهوم القصة وأثره (محمود الرياوي)، أو جدلية الحياة والموت أو أنسنة الأخير (جمال أبو حمدان، هند أبو الشعر، بسمة النسور)، أو العلاقة بين النص والبيئة (نايف النوايسة)، أو التشيؤ وتفتت الذات الإنسانية الواحدة (أحمد النعيمي)، أو الذكورة والأنوثة (جميلة عمايرة)، أو التجريب وأثره في إيقاع السرد (حزامة حبايب)، أو تعدد المستويات اللغوية (مفلح العدوان)، أو الرموز ودورها (سامية العطعوط)، أو استلهام الموروث الشعبي (يحيى القيسي).. إلخ.

ثالثاً: عدم الانطلاق من معايير سابقة، بل اشتقاق المعايير من النصوص المدروسة، فهناك بؤرة (فكرية أو فنية) تطبع النص بطابعها، يتم استخلاصها بعناية ودأب، ومن ثم تناول عناصر النص وعلاقاتها استناداً إليها، وهذا ما تؤكده عناوين محاور الكتاب. رابعاً: يلاحظ قارئ الكتاب أن هيا صالح تنطلق في تعاملها مع القصص من خلال موقف نقدي يتصف بالمحبة والحنو والتقدير: محبة الأعمال المدروسة والحنو على مآخذها، وتقدير أصحابها وجهودهم. وأذكر هنا كلمة الصديق الروائي الطيب صالح إذ قال لي يوماً: «لا بد من المحبة، فبالمحبة ترتقي بالممارسة النقدية وتحقق أهدافها». خامساً: الابتعاد عن الأحكام النقدية المباشرة أو الصارمة، والاهتمام بدلاً من ذلك – بحيثيات الأحكام لا بالأحكام نفسها. ولا شك أن الاهتمام بالحيثيات ملمح إيجابي، إذ الحكم بحد ذاته لا قيمة له. سادساً: اللغة النقدية الواضحة، والابتعاد عن استخدام المصطلحات القلقة والمضطربة أو استخدام الجداول والترسيمات الغامضة. فاللغة النقدية الواضحة تعكس قدرة لافتة على تمثل القضايا الأدبية والنقدية التي تثيرها النصوص المدروسة.

هذه هي أهم الملاحظات التي استخلصتها من قراءة هذا الكتاب المهم، ولا شك أن هناك ملاحظات أخرى عديدة، لكني لا أريد هنا أن أعرض كل شيء أو أخوض في التفاصيل، لأني حريص على أن يقرأ القارئ «هيا صالح» ذاتها، لأنها حريّة بالقراءة.. وأتمنى وأتوقع أن نقرأ لها في المستقبل كتباً أخرى في نقد القصة القصيرة وغيرها.

قيثارتي تجهش أوتارها بالندم

يونس الحيول *

الآن و قد انتهت الحرب
و الحواس أسلمت
أوزارها
في البعيد حيث لا أثر
للحرائق
الليل يجرح أنامله
الفراغ

فهل تصغين إلى قيثارتي
تجهش أوتارها
بالندم؟
إلى نبضي في رسائل
الهاتف
دوزنه الغياب على
نشيد اليأس؟

ماذا كان بوسعي أن
أفعل ؟
لسمكة(سكالي) الصغيرة
إذ أماتتها الوحدة
لقلبك الساهم
إذ جف فيه الحب
لنظرتك التي ترسلينها
أبعد مما أخمن..

حواسي تلوح لغيابك
بينما صمتك
يقول كلاما حامضا
عن المستقبل
حين قرأت(الشاعر)
أحدست أني من كان يتألم
وليس سيرانو؟
أرأيت كيف الثواني
تقصف العمر؟

في غرفتي حيث الهواء
يائس للغاية
والظلال في لوحة
ماغريت مازالت تمسك
بخناق العالم
قرب ضحكتك التي ترن
في الدرج
قرب الدمية المكسورة
أسجي جثة الملاك
الطيب الذي كان لا ينام
كي يحرس
أحلامك في الممشى
الموحش إلى فندق
الفردوس

فقط عديني
حين تذهبين إلى نومك
أن تهذي بكلام غامض
عن مقهى (لاكرافيل)
عن الشلال
و مساء البلياردو
وفي حلمك الآتي
أن تمنحيني جسدك كله
لأعلمك الحب

عديني
كلما زرت سروة الذكرى
وحيدة أو رفقة الساعة
الزرقاء
أن تلوحي طويلا
للغيمة الواطئة
التي – بلا سبب تقريبا–
بذلت دموعها
لصباح بارد في يوليوز..

---

* شاعر من المغرب

فضاءات ثقافية

خمسة كتب جديدة عن نجيب محفوظ

القاهرة ـ «القدس العربي»:

خصصت الدار المصرية اللبنانية سلسلة جديدة لتناول أدب الروائي المصري والعربي الراحل نجيب محفوظ، وقد أصدرت السلسلة الجديدة باكورة انتاجها المتمثل في عدد من الكتب أولها للناقد حسين عيد تحت عنوان رحلة الموت في ادب نجيب محفوظ وكتاب كان للشاعر عيد عبدالحليم تحت عنوان «نجيب محفوظ، رسائله، بين فلسفة الوجود ودراما الشخصية» وهو جمع وتحقيق وتحليل.

كذلك أصدرت الدار كتاب «نجيب محفوظ، لقاءات وحوارات» لسلوى العناني التي ارتبطت بعلاقة زمالة طويلة مع نجيب محفوظ في مبنى جريدة الأهرام وبالتحديد في الغرفة 607 وهي علاقة سرعان ما تحولت الى علاقة صداقة إنسانية، جمعت الأديب والصحافية، مما أتاح لها أن تنفرد بمجموعة من اللقاءات والحوارات مع محفوظ، وكذلك زوجته وابنته.

كذلك أصدرت الدار «نجيب محفوظ، المكان الشعبي» في رواياته بين الواقع والإبداع للشاعر شريف الشافعي، ويتناول الكاتب عبر الكاميرا والقلم المسافة بين المكان وبين الرواية التي خرجت منه، وكيف يتماس معها المبدع وكيف يستلهمها، وكيف يتجاوزها، وإذا كان هذا المكان في روايات نجيب بخاصة، فإنه يكتسب بعدا أعمق على المستويين الوجودي والفلسفي، هذه المسافة الدقيقة هي ما يحاول المؤلف اكتشافه، فقد حمل كاميرته وذهب إلى الأماكن الحقيقية التي تحدث عنها نجيب محفوظ، ورصد الفارق بين المكان كما هو في الواقع، وبين المكان كما هو في الرواية، محاولا معرفة كيف تجلى المكان في أدب محفوظ، وما هي الأبعاد التي اكتسبها، وما الملامح التي أكسبها هذا المكان للإنسان الذي يعيش فيه، وكيف أثر فيه وتأثر به.

أما كتاب رسائل نجيب محفوظ بين فلسفة الوجود ودراما الشخصية للشاعر عيد عبدالحليم فينطلق من أن الرسائل فن أدبي قائم بذاته، تجاهله أدبنا الحديث والمعاصر كثيرا، لكن المؤلف يحاول إعادة الاعتبار إليه من خلال بحثه وتنقيبه عن رسائل أديب نوبل، فجمع منها ما استطاع ووضعه في سياقه الثقافي والفكري، ليلقي الضوء على طبيعة الحياة الأدبية والفكرية في النصف الثاني من القرن العشرين من خلال أعلامها الكبار ونجيب محفوظ على رأسهم، فحلل رسائله الى لويس عوض، وتوفيق الحكيم، ورجاء النقاش، ولطيفة الزيات، وسيد قطب، ومدكور ثابت، وهي رسائل ـ حسب المؤلف ـ تكشف عن لغة راقية في الحوار حول القضايا الأدبية والفكرية المثارة حينها.

كذلك أعادت الدار طبع كتاب رحلة الموت في أدب نجيب محفوظ، وأصدرته في طبعة مزيدة ومنقحة، وهو للناقد حسين عيد كما سبق أن أشرنا، حيث اعطى المؤلف اهتماما خاصا لقضية الموت لدى محفوظ لا سيما في وجوده كفكرة وكحدث، فرصد له جزءا كبيرا من أدبه، خصوصا في قصصه القصيرة، التي ضمتها عشر مجموعات قصصية بدءا من مجموعة همس الجنون وانتهاء بمجموعة «القرن الأخير».

وقد التفت الناقد الى فكرة الموت لدى نجيب محفوظ ورصدها منذ جاءت كفكرة نظرية في قصة «صوت من العالم الآخر» مرورا بكل مراحلها ووصولا الى أحلام فترة النقاهة، آخر إبداعات محفوظ ليصل في النهاية الى أن الموت «عدو في ثياب صديق» كما قال محفوظ، وأنه ليس نقيض الحياة، بل هو امتداد لها.

والكتاب في طبعته الجديدة يتضمن العديد من الإضافات والتنقيحات التي أضافها الكاتب حتى يقف على آخر ما كتب محفوظ.

يقول حسين عيد: لقد ساعد توظيف نجيب محفوظ الأشكال الأدبية المختلفة على إقناع القارئ «فنيا» باستحالة قيام البشر بدور رسول الموت، في الفصل الثاني من «رحلة الموت» وهو نفس ما لجأ إليه ـ مرة أخرى ـ عند «تجسيد رسول الموت»، في الفصل الخامس فأتاح له استخدام الأشكال الأدبية مجالا واسعا في تجسيد شخصية رسول الموت، من زوايا مختلفة.

ويرى حسين عيد في فصله الأول من الكتاب أن الموت ظاهرة موجودة في الحياة، ويصعب على الفنان الهروب منها، لأنها أحد معطيات الواقع الذي يبدأ منه، ويتعامل معه وينهل من منابعه، ويقول عيد في المرحلة الثالثة من كتابه: بدأ نجيب محفوظ رحلة الموت بالتعرف على الجوانب المتباينة لوقوع الموت، ثم انتقل الى الجانب المقابل «البديل» لمناقشة امكانية قيام البشر بدور رسول الموت، فتوصل الى استحالة قيامهم بهذا الدور، فسعى الى محاولة أن يحل لغز الموت وذلك على مستويين، أولهما اعتبار الموت جريمة قتل، يسعى ضابط شرطة لفك غموضها واكتشاف الفاعل الحقيقي وذلك في قصتي ضد مجهول من مجموعة دنيا الله، وقصة قاتل قديم، من مجموعة التنظيم السري.

كذلك يعكس منظور الرؤية ثانيا، فيبدو الموت جريمة متوقعة الحدوث، وتتم مطاردة القاتل ليس على أرض الواقع، بل في الحلم وذلك في قصتين أولهما قصة الرجل والآخر من مجموعة الحب فوق هضبة الهرم، وقصة الفجر الكاذب من المجموعة التي تحمل نفس الاسم.

ويضيف الكاتب انه في قصة ضد مجهول «1963» يحقق ضابط الشرطة محسن عبدالباري في جريمة مصرع المدرس حسن وهبي، فلا يجد سوى أثر حبل حول العنق، وجحوظ العينين وتجمد الدم حول أنفه وفمه، ولم يكن بالشقة شيء غير مألوف، يمكن أن يفيد منه المحقق، وبمرور أسبوع أو نحوه غاص الخبر في بحر النسيان حتى أن الضابط قيده ضد مجهول.

تكررت الجريمة نفسها حسبما يرصد الكاتب، وتتابع تكرارها بصورة مرعبة، تلقاها الناس بذهول، وتجرع الضابط مرارة الهزيمة والخيبة للمرة الخامسة، حتى خيل إليه أن المجرم يتقصده هو بالذات بألاعيبه الجهنمية وذكرته شخصية المجرم برجل الروايات الخفي، أو بمخلوقات الأفلام السينمائية التي تهبط إلى الأرض من الكواكب الأخرى.

أما عن الحلم فيقول الكاتب ان نجيب محفوظ استخدمه بدءا من المرحلة الثانية في علاقته بفكرة الموت لأن المرحلة الأولى تمثل التعرف على الموت ثم المرحلة التالية وهي تقبل فكرة الموت وكان بديهيا أن يكون الاسلوب المستخدم فيها هو الاسلوب الواقعي، وهنا ـ حسب المؤلف ـ لا يكون للحلم مكان إلا بقدر توظيفه لتأكيد أمر واقع.

ويرى المؤلف أن الأسلوب الواقعي تم تجاوزه بعد ذلك إلى الأسلوب الرمزي بعد ان استنفد الأول أغراضه في مرحلة أولية، ثم تصاعدت المعالجة بمزيج بين الواقعية والرمزية، باستخدام رمز شفاف لينقل الى قصص رمزية بسيطة البناء، ومنها الى قصص رمزية معقدة، متشابكة البناء والتركيب.

وقد نشر المؤلف حسين عيد جدولا لأعمال نجيب محفوظ التي تناولت علاقته بالموت في مرحلة التعرف عليه وتجسيده وقبوله، ويختتم المؤلف حديثه بالقول إن نجيب محفوظ توصل عبر تجربة فنية طويلة، الى أنه كلما ادلهمت سبل الحياة، وساد فيها العبث واعتلاها الشعوب من خلال شبح الموت، فإن الفن يعيد التوازن الى الفنان، ويضيء الطريق أمامه إلى الحياة ويزرع الأمل، ويوطد العزم على المضي فيها – رغم ما يفجعنا من عجائبها الساخرة ومآسيها الدامية، بحكمة العقل وقوة المنطق، راضين بما يجرى به الزمن، مسلمين بواقع الموت، في نهاية دورة الحياة المتكررة.